علي مبارك باشا ٣

قدمنا للقراء صورة واضحة من علي مبارك التي تم بها بك مبارك الشاب وآن أن نأخذ في إيضاح الحياة العملية الخصبة لهذا الرجل العظيم، وهي ترتبط كل الارتباط بالأسرة العلوية الحاكمة

فعلي مبارك نموذج للموظف الكفء النشيط المخلص الذي ظل يعمل بخير أمته قرابة نصف قرن . فاذا نوهنا بأعماله في المعارف فان أعماله في الأشغال وغيرها لا تقل عنها شأنا ولكنا نكتب لمدرسي المدارس لنطلعهم على منال المدرس وناظر المدرسة ومدير المدارس ووزيرها وعسى أن يقيض الله مهندسا ليبرز أعماله من الناحية الهندسية فهي متصلة بالمشروعات القائمة الآن التي نفرت الخراب والتيه والجمال والنظام في مصر في أغلب عهد اسماعيل وتوفيق . فأثره في التعليم هو غايتنا الأولى ونعرج على غيره لماما

في سنة ١٨٥١ م عهد إليه عباس باشا الأول إدارة المدارس وسلم إليه مقاليد الأمور فيها فاذا إصنع ولا كتب صالحة ولا معلمين ولا أدوات ؟ فصار منه مثل الفلاح الذي أعطيت له أرض بائرة وقيل له إن كنت جادا صيورا فصير لنا هذه الأرض جنات دانية القطوف، فصار الترجم يؤلف الكتب وترجمت المطابع لها وإخراجها للمدرسين والتلاميذ ثم هو مع ذلك يعلم المعلم كيف يعلم، والتلميذ كيف يأكل ويشرب، وأصبح همه منع الضرب في المدارس وأن يسود جوها الاخاء والمودة والإرشاد قال في ذلك :

(وكنت أباشر ذلك بنفسي حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب وألاحظ المعلم كيف يلقي الدرس وكيف يؤدب التلامذة ولا يمضي يوم إلا وأدخل عند كل فرقة واتفقد أحوالها مع التشديد على الضباط والخدمة في القيام بما عليهم كما ينبغي، ولم أكتف بذلك بل جعلت على نفسي دروسا كنت ألقيها على التلامذة كالتهيبة والعبارة، وكان أمر المدارس كل حين لازدياد إلا سلاما ولا التلامذة إلا نجاحا ولا المعلمون إلا اجتهادا، وكانت الامتحانات السنوية تشهد بمزيد الاعتناء وحسن الأسلوب ونجاح الطريقة المتبعة، وجرت بين المعلمين الألفة وتربى الأطفال على الأخوة وغرس فيهم حب التقدم وشرف النفس والعفة حتى وصلت النظارة إلى الاكتفاء في تأديب من فرط منهم بالنصيحة والزجر وانقطع الشتم والسفه وكاد يمتنع الضرب والسجن فكانت أفراشي فيهم أبوية أنظر إلى الجميع من معلم ومتعلم نظر الأب لأولاده، وإلى الآن أعتقد أن ذلك واجب على كل راع في رعيته حتى يحصل الغرض من التربية)

ذلك كان فى حكم عباس ثم لما تولى سعيد باشا خلا المترجم مديرا للمدارس، وكان سعيد على غرار عباس فى عدم العناية الجدية بالمشروعات العامة. وعلى بك مبارك نشأ من أبناء الفلاحين الذين لم يكونوا ذوى خطر فى الحكومة، والشراكسة والأتراك هم المسئولون عن الإدارات الرئيسية، فوشى به بمقام حسود الى الوالى ففصله عن عمله وزاد الطين بله . أن أنفق مدرسة الهندسة التى جاهد على مبارك لانشائها وأن تبلغ النكاية به غايتها فيؤمر أن يسافر إلى الأستانة مع الحملة المصرية التى أرسلت لمساعدة الدولة العلية فى حرب القرم سنة ١٨٥٤ . وهكذا غادر مصر ذلك العامل النشيط وركب السفينة النيلية من القاهرة إلى الاسكندرية فخرج تلاميذ المدارس كبيرهم وصغيرهم زمرا عن ضباطهم ووقفوا بساحل النيل أمام السفينة يودعون مربى نفوسهم وأبائهم الشفيق وجعلوا يبكون ويتحيرون حتى بكى المترجم لبكائهم ورضى بقضاء الله وقدره، وأقام فى هذه السفرة سنتين ونصف سنة فلم يثنه عمله الحربى عن الأعمال المثمرة لمستقبل حياته، فتعلم اللغة التركية وتعمق فى بلاد تركيا لمعرفة أخلاق الناس وعاداتهم وما يزال الخصوم وراءه حتى فرقوا بينه وبين زوجه قبل عودته إلى مصر وهكذا الحقد يأكل القلوب كما تأكل النار الحطب

ولما عاد إلى مصر من الحرب قاسى الأهوال التى تشيب النواصى فى عهد سعيد، وحسبك أن تعرف أنه اشتغل فى الوظائف العامة وفصل عن عمله أربع مرات بدسائس الواشين . ومن الأعمال التى تقلدها أنه اشتغل معلما أولا بعلم العساكر القراءة والكتابة، وقبل له أترضى ان تكون معلما لهؤلاء؟ فقال كيف لا أرضى فى تعليم أبناء الوطن؟ فكان ينتقل مع فرق العساكر إلى أى مكان حلوا فيه ويمر عليهم فى خيامهم، وتارة يكون التعليم بتخطيط الحروف على الارض أو بالفحم على البلاط حتى علمهم الخط وقواعد الحساب الأساسية، وكان يعلم الهندسة بالخيال والعصا لعدم وجود أدوات التعليم الهندسية وألف كتابا سماه (تقريب الهندسة) وعلمهم أيضا فنون الحرب، وحتى هذه الوظيفة استكثروها عليه فوشوا به ففصل، ولكن اليأس لم يجد إلى قلبه سبيلا فاشتغل بالتجارة، وخال بخاطره أن يعقد مع بعض زملائه المهندسين شركة لبناء البيوت وبيعها كالشركات التى تراها الآن فى القاهرة وفى مصر الجديدة وحدائق القبة فلم يجد من يوافقه فتفكر فى إنجاز العمل بنفسه مستعولا على مضاء عزيمته وبينما هو كذلك يفكر ويقدر إذ مات سعيد باشا وتولى صديقه ورميله فى المدرسة بباريس الخديوى اسماعيل باشا فابتسم له الزمان وأنجز له المقدار وعده كذلك جزاء الصابرين .

وهنا أسلم اليه اسماعيل زمام التصرف فى المشروعات العامة ؛ ومن المعروف أنه فتح الخزائن وبذر الاموال ذات اليمين وذات الشمال وخال لمصر كونى جنة الدنيا فكانت ووجد فى على بك مبارك نشاطا فى العمل ووفورا فى العقل وعلما بالأمور وبلاغة، فولى الأمر قبد أعماله

بإصلاح القناطر الخيرية ثم وكالة ديوان المدارس وصار له النفوذ العظيم ورافق الخديوى فى رحلة إلى باريس وأخذ يتمى معلوماته فى التعليم بنظام المدارس فى فرنسا والاطلاع على الكتب المطبوعة . وبعد عودته مديراً بالقناطر الخيرية باشا وأسندت إليه إدارة ديوان المدارس والأشغال والسكك الحديدية وبعد قليل ضمت إليه إدارة الأوقاف كل ذلك مع بقائه ناظراً للقناطر الخيرية واعتباره من (رجال المعية) خاصة إسماعيل

فالعقل الذى يدير كل هذه الأعمال لا بد أن يكون جباراً قديراً على الاضطلاع بالأمور قال فى ذلك (فبذلت جهدى وشمرت عن ساعد جدى فى مباشرة تلك المصالح فقمت بواجبها)

والذى يعنينا أن نبسط القول فيه هو تنظيم المدارس وإدارتها

كان مركز المدارس فى منطقة العباسية وكان ذهاب المعلمين والتلاميذ إلى هذا المكان السحيق جهد ومشقة وليس فى القاهرة إذ ذاك طرق مواصلات كالتى نراها اليوم فاستصدر من الخديوى إذناً بنقل المدارس إلى قصر مصطفى باشا فاضل بدرب الجماميز وجعل كل مدرسة فى ناحية منه وأصبحت المدارس وإدارتها فى وسط المدينة وبذلك سهل على المعلمين والتلاميذ الذهاب إلى المدارس وتضاعف عدد الطلاب وكان يفتش على المدرسين والتلاميذ بكرة وعشيا ثم فكر فى إصلاح المدارس وتنظيمها فى المدن والقرى أيضا ووضع لائحة المدارس المشهورة بلائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ هـ لتسير المدارس فى القطر المصرى على مقتضاها وأنشأ كثيراً من المدارس الابتدائية فى المديريات وأصلح المكاتب وأدخل فيها علوماً حديثة وكذلك مدارس ديوان الأوقاف وقد كان مديراً لها فأصلح الخرب واستخدم جانبا من أموال الأوقاف فى الانفاق على التعليم العام بعد أن كادت تضيع هباء منثوراً باستبداد نظار الأوقاف بجمع المدارس الأهلية من كل جانب فى ميزانية الدولة ومن ريع أطيان تفتيش الوادى بالشرقية التى خصصها الخديوى لذلك ثم عمل على أن يساعده أولياء أمور التلاميذ بجعل عليهم نفقات ضئيلة ليستطيع القيام بالمشروعات التعليمية فى أنحاء القطر المختلفة .

وقد بقيت مشكلة إعداد مدرسين للمدارس ليستطيعوا القيام بالتعليم فأسس مدرسة دار العلوم سنة ١٨٧٢ والغرض الأصلى منها تخريج أساتذة اللغة العربية واختار للتدريس بقية العلوم من أتموا دروسهم فى المدارس العالية كالهندسة والحاسبية ومدرسة الادارة (الحقوق) وبعد إنشاء دار العلوم أعظم عمل أسداه المترجم لأحياء اللغة العربية وآدابها

وأعماله فى هذا الدور من حياته تدل على أنه كان يرمى إلى تقوية ناحيتين من نواحى الضعف فى الأمة ناحية الذل والاستكانة لحكام وناحية التقليد والتعليم بإصلاح المدارس وتأليف الكتب وليس أدل على ذلك من وزير بجلة وزارات يديرها من الصباح إلى المساء

ثم مع ذلك لا يغفل التفتيش على المدارس بنفسه ومناقشة التلاميذ فكان هذا الرجل العظيم يدنى الطالب منه فيحدثه فى دروسه ثم يسأله عن بلده وعن حال أهلها وعما يقولون للطالب وهو يقضى معهم أيام المسافات فاذا اطمأن وزالت عنه الوحشة وهيبة الباشا قال له : اسمع يابنى أتدرى لم أحدثك وأطلب منك أن تدمن على الحديث معى ؟ إنى ناظر ، أنا أكبر من مديركم فاذا ذهبت إلى بلدك ووجدت الناس يشكون من عيوب فى الادارة فلاتهيب أن تذهب إلى المدير وتعرض عليه شكوى الناس وما دام الناظر يحدثك وتحدثه فأنت على مقابلة المدير والتحدث معه أقدر

حسنين حسن مخلوف
المدرس بالمعلمين بقنا

شأن

جليل لا تحقره تفاهة المادة ، خطير لا تصغره حداثة المتعلمين ذلك شأنك أيها المعلم فهيم التطلع إن قدر أعلى وشأن أرفع ؟ وليس فيما أعلم وبعلم كل عاقل أرفع رتبة ولا أشرف مهنة من معلم يقوم بواجب مهنة ويترسم أمثل الطرق لتربية أبناء أمته

ما الناس دونك إلا واحد من اثنين مربو من بحر فيضك أو مجتن من طيب ثمرك . وما الولاة والقضاة الا قوام على غرسك

لك فى الحياة شأن يغنيك ، وبعد الممات ثواب يرضيك . لك فى الحياة ذكر عاطر ، وبعد الممات نعيم فاخر

وإن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحيتان فى البحر يصلون إلى معلم الخير ، فكن أنت ذلك المعلم باخليفة المرسلين لا تحتقر شأنك ، ولا تستهن بعملك ، واعمل على كسب شرف المعلم : أصدق اذا حدثت ووف بما وعدت (ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك) واترك مالا يعنيك إلى ما يعنيك فهذه دعائم رتبتك ، ومعارج بلوغك . تبلغ بها مالا تبلغ بالحسب ، وتنال بها مالا ينال بالنسب . روى أن رجلا وقف على لقمان الحكيم وهو فى حلقة عظيمة من الناس يعلمهم فقال له : ألست عبد بنى فلان ؟ قال بلى . قال : فما الذى بلغ بك إلى ما أرى ؟ قال - قدر الله ، وصدق الحديث وترك مالا يعنى : فهذا الذى أوتى الحكمة . سئل عما جمع الله لوجوب حوله ، ورفعه إلى رتبة المعلم فأجاب بما سمعت . أما قدر الله فلا سبيل إليه وأما صدق الحديث وترك مالا يعنيك فمن أوجب الواجبات لدينك ومن ألزم الصفات لعقلك فأى مخايث منهما فلا تلومن من يسىء بك الظن .

محمد مرسى رزق (مدرس بالجيزة غريبة)